

فلاسفة العرب

٤

الغزالي

الجزء الاول

منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت

مَكْتَبَةُ
لِسَانِ العَرَبِ
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

الأب يوحنا قمير
أستاذ الفلسفة العربية في جامعة القديس يوسف

الغزالي

دراسة - مختارات

طبعة ثالثة منقحة

الجزء الاول

منشورات المطبعة الكاثوليكية
بيروت



الغزالي

الغزالي

١٠٥٩ – ١١١١م ٤٥٠ – ٥٠٥هـ

ترجمة

في غزالة ، وهي قرية من اعمال طوس ، احدى مدن خراسان ، ولد ابو حامد محمد ... حجة الاسلام ، واليها انتسب[١].

وكان ابوه فقيرًا يعيش من غزل الصوف ، وكان محبًا للعلم يحضر مجالس الفقهاء والوعاظ ، ويتمنى على الله ان يرزقه بنين كهؤلاء.. ورزقه الله ما اشتهى ، فكان له محمد هذا ، اشهر فقهاء عصره ، واحمد اخوه ، وكان واعظاً يزدحم عليه الناس .

وبلي الغزالي باليتم ، ففقد اباه صبياً. ويتم بعضهم نعمة ، لانه اعتماد على النفس ، وسير الى غير آفاق .

ويتم الغزالي وضعه في رعاية وصي صوفي . ورعى هـذا الصوفي صداقة الوالد ، فاعتنى بالصبي جسدًا وروحاً ، والقى فيه بذورًا طيبة ، سوف تنبت غرساً يانعاً ، وتتفتق براعم وازرارًا .

على ان هذا الصوفي كان ضيّق الحال ، وما خلّفه الوالد من مال

---

١) قال ابو سعد عبد الكريم السمعاني – وقد ولد في طوس نفسها ، بعد وفاة الغزالي بستين ، وكتب كتاباً شهيرًا في الالقاب – ان اسم الغزالي مشتق من غزالة ، وهي قرية قريبة من طوس . وانا نعرف رجلاً آخر بهذا الاسم ، يدعى الغزالي الاكبر ، ربما كان عمّ الغزالي هذا او جدّه . واذًا زاي الغزالي مخففة ، ولم يلقب بهذا الاسم لان اباه كان يغزل الصوف ، ناهيك عن ان غازل الصوف يدعى غزّالًا لا غزّالياً .

كان نزراً يسيراً ، فالجأ الولد الى مدرسة خيرية ، يلقن فيها العلم ، وينال القوت . ولسنا ندري في اي عمر ترك وصيه الصوفي ، ولا كم اقام في مدرسته تلك .

على انا نعلم — ونعلم من الغزالي نفسه — انه كان يحس ، منذ صباه ، بفضول عقلي غريب ، يدفعه الى التهجم على كل مشكلة ، والتفحص عن عقيدة كل فرقة . وان هذا الفضول لثقة بالنفس ، وقلق في العقل ، وسر كل مفاجأة .

وانه هذا التطلع العقلي قاد الغزالي الى نيسابور ، الى مدرستها النظامية ، حيث كان يدرس امام الحرمين ، ضياء الدين الجويني .

واخذ الغزالي عن استاذه الفقه والمنطق ، واخذ عنه جرأة في النظر ، وخروجاً عن مسالك التقليد . وكان الغزالي تلميذاً متفوقاً ، وكان تفوقه يدفعه الى العجب بالنفس ، وكان امام الحرمين يتمعض لذلك . على ان الاستاذ كان افطن من ان يتجاهل ذكاء تلميذه ، او يظهر الغيرة منه ، بل كان يتبجح به في الظاهر ، ويقول عنه اذا وصفه : « الغزالي بحر مغدق . » ويموت امام الحرمين سنة ٤٧٨هـ =١٠٨٥م ، ويرى الغزالي نفسه ضائعاً وحيداً .

على انه قد اصبح شاباً ، وشاباً ناضجاً ، له من العلم ما يجابه به الاعلام ، ومن الفصاحة والذكاء ما لا يحده طموح .

وكان في العراق وزير سلجوقي كبير ، غيور على العلم واهله ، غيور على اهل الصلاح ، يعاتبه سلطانه ملكشاه على ما ينفقه في سبيل المدارس ، فيجيبه من كتاب : « انا اقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل ، اذا نامت جيوشك ليلاً ، قامت جيوش الليل على اقدامهم ، صفوفاً بين يدي ربهم ، فارسلوا دموعهم ، واطلقوا السنتهم ، ومدوا الى الله اكفهم بالدعاء لك ولجيوشك . فانت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون . »

واتى الغزالي نظام الملك هذا ، واختلط باهل العلم من مجلسه ، واظهر في مناظرة الائمة تفوقاً وبراعة . وظلّ في ظل نظام الملك اعواماً ستة ، يريه فصاحة وبلاغة ، ويريه مودة واخلاصاً ، حتى ارسله استاذاً الى مدرسة بغداد النظامية ، سنة ٤٨١هـ = ١٠٩١م.

وكانت المدارس النظامية تلك وسيلة لتأييد السنة ونفوذ السلاجقة ، كما كان الازهر في مصر وسيلة لتأييد الشيعة ونفوذ الفاطميين . واذا كان على الغزالي ان يناصر السلطان القائم ضد كل دعوة علوية ، وان يدافع عن اراء اهل السنة ضد المبتدعة .

وعلّم الغزالي في بغداد مدة اربع سنوات، مرّ اثناءها بحالات نفسية عنيفة ، سنأتي على ذكرها . وقد انتهى به الامر الى ترك التدريس في بغداد ، والتجول من بلاد الى بلاد . قال الغزالي في اماكن من المنقذ :

« ففارقت بغداد . . . ثم دخلت الشام ، واقمت به قريباً من سنتين ، لا شغل لي الا العزلة والخلوة . . . فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق ، اصعد منارة المسجد كل النهار ، واغلق بابها على نفسي .

« ثم تحركت فيّ داعية الحج . . . فسرت الى الحجاز .

« ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الاطفال الى الوطن ، فعاودته بعد ان كنت ابعد الخلق عن الرجوع اليه . فآثرت العزلة ايضاً ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر . وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغير فيّ وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو الحال الا في اوقات متفرقة ، لكني مع ذلك لا اقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، واعود اليها . . .

« ثم اني لما واظبت على العزلة والخلوة ، قريباً من عشر سنين . . . قدّر الله تعالى ان حرّك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فامر امر الزام بالنهوض الى نيسابور . . . وبلغ الالزام حداً

كان ينتهي ، لو اصررت على الخلاف ، الى حد الوحشة[١] . . .

« ويسر الله الحركة الى نيسابور ، للقيام بهذا المهم ، في ذي القعدة سنة تسع وتسعين واربعمئة . وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين واربعمئة . »

يقصّ علينا الغزالي هذه القصة ، وهو استاذ في نيسابور ، « وقد اناف السنّ على الخمسين » ، اي بعد سنة ٥٠٠هـ = ١١٠٦ م . ولا نظنه كتب المنقذ بعد هذه السنة بكثير ، ولا انه درس طويلاً بعد كتابة المنقذ ، لانّا نعلم انه توفي سنة ٥٠٥هـ ، وانه عاد الى طوس في اواخر حياته ، واتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية . ولعل مصرع فخر الملك ، سنة ٥٠٠هـ ، قد عجل في تركه التدريس في نيسابور ، ولعله اعتزل نهائياً سنة ٥٠١ او ٥٠٢ على ابعد تقدير .

ه

بقي ان نلم الماماً بنفسية الغزالي .

لقد كان الغزالي عقلاً ذكياً ، وقد ادرك من نفسه تلك الهبة ، فاذا به كثير التطلع ، جم الفضول ، يتهجم على كل مسألة ، ويجادل في كل معضلة ، يطالع كل كتاب ، ويصنف في كل عقيدة ، وما اكثر ما طالع الغزالي والّف ، وما اكثر ما ناظر وبزّ الاقران .

وقد ادّى ذلك بالغزالي الى المباهـاة بذكائه ، والعجب بالنفس . الا تراه ينظر الى شبهات عصره ، وضلالات زمانه ، فيجد افضاحها

---

١) ان هذا السلطان هو سنجر ، الذي ولي خراسان ، نيابة عن اخيه بركياروق ، سنة ٤٩٠هـ = ١٠٩٦ م . وجاء في طبقات الشافعية الكبرى ان فخر الملك ، وزير سنجر ، وابن نظام الملك ، هو الذي دعا الغزالي الى التدريس ، « والح عليه كل الالحاح ، وشدّد في الاقتراح ، الى ان اجاب . » ومن الطبيعي ان يلح ابن نظام الملك على صديق ابيه ، وقد الحّ باسم السلطان .

ايسر من شربة ما..[1] ؟ ألا يحدثنا ، حين يحدثنا عن تركه التدريس في بغداد ، عن الحاح الولاة عليه بالبقاء ، ولوم أئمة العراق له ، وعن تعليل ذلك بقولهم : « هذا امر سماوي ، وليس له سبب الا عين اصابت اهل الاسلام ، وزمرة العلم[2] ؟ ثم الا يعود الى التدريس في نيسابور ، لان سلطاناً الحّ ، وارباب قلوب نصحوا ، وصالحين رأوا منامات ، والهاً وعد « باحياء دينه على رأس كل مئة. »[3] ؟

هو الشعور بذكائه ، وهي شهرة صلاحه ، دفعاه الى ان يباهي ، وان ينشر ما يؤثر الحياء طيه . على انك قد تلطف من دهشتك ، اذا علمت ان صالحين كثيرين باهوا بما باهي بـه الغزالي ، وانه دائب على اصلاح نفسه ، ناسب الى الله كل فضل ، مؤمن ان لا حول ولا قوة الا به : « اني لم اتحرك ، ولكنه حركني ، واني لم اعمل ، ولكنه استعملني ، فاسأله ان يصلحني اولاً ، ثم يصلح بي ويهديني. »[4]

وان اهل عصره رأوا فيه ما رأى في نفسه ، فرثاه الابيوردي من قصيدة :

مضى ، واعظم مفقود فجعت به من لا نظير له في الناس يخلفه !

---

١) المختارات : ص ٤٨
٢) المختارات : ص ٤٣
٣) المختارات : ص ٤٩
٤) المختارات : ص ٥٠

اراؤه

الغزالي شخصية غنية الروح ، واسعة الاطلاع ، كثيرة الانتاج ، متشعبة المناحي .

وحياة الغزالي شطران متباينان من وجوه، مشتركان في اشياء ، يفصلهما انقلاب عميق ، واهتداء الى التصوف .

وعقل الغزالي كثير التطلع ، نفور من الانقياد ، نزوع الى اليقين ، عرضة للحيرة والقلق ، هدف لكل مهالك الذكاء .

واذاً ليس من اليسير ان تجمع ما تبدد ، وتلاءم ما تشعب ، ان تبين ما تبدل ولا تذهل عما استمر ، ان تتبع تطور الفكرة وتجد حلاً للمتناقضات .

وانّا قد رأينا ان نتخذ كتاب المنقذ اساساً ، فنعرض تطور فكرة الغزالي كما عرضها هو لنا ، ثم ننقد هذه الرواية مظهرين ما فيها من وهن ومن تناقض ، وننتهي برأي يشرح لنا كتاب المنقذ ، بل قد يشرح باقي كتبه ايضاً .

١ – رواية المنقذ

اديان ومذاهب وتقليد : الشك في الايمان :

رأى الغزالي اختلاف الناس في الاديان ، واختلاف الائمة في المذاهب . وسلطان التقليد في اعناق هذه وتلك ، ووافق ذلك منه عقلاً متطلعاً ذكياً ، وثقة بالنفس ، فاذا به حائر امام تضارب الاراء ، واذا به يتحرر من كل تقليد ، من الرضوخ لرأي امام او تعليم والد واستاذ ، ومن الركون الى ايمان موروث ، ليعود الى حقيقة الفطرة الاصلية، ويسلك طريق الحق الخالص .

رأى الغزالي ذلك وهو في عنفوان الشباب لم يبلغ العشرين ، وخلع التقليد وانكسرت عليه العقائد الموروثة وهو قريب عهدٍ بسنّ الصبا ، وجاوز الغزالي الخمسين وما شفى النفس من فحص العقائد والفرق !

ما اليقين ؟

ولما كان الغزالي يبحث عن حق يطمئن اليه ، ويوقن فيه ، رأى ان يبدأ بتحديد العلم اليقيني . وقد حدده هكذا : « العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . بل الامان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدّى باظهار بطلانه ، مثلاً ، من يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورّث ذلك شكاً وانكاراً .[1] »

الشك في الحس والعقل :

حدد الغزالي اليقين ، ثم شرع يبحث عنه في ما عنده من علوم ، فوجد نفسه « عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، الا في الحسيات والضروريات[2] » ، اي في ما يعرفه عن طريق الحس والعقل .

وبحث الغزالي في معلومات الحس اولاً ، فرآها خاطئة ، او عرضة للضلال : ألا ترى الظل جامداً ، وهو متحرك ؟ ألا ترى الكوكب صغيراً ، وهو اكبر من الارض ؟ واذاً لا ثقة بالحس ، ولا يقين في ما نعلمه عن طريقه !

---

١) المختارات : ص ٣٢ — قال داكرت ، في بحث مماثل : « لا اسلّم بحقيقة ما لم تبدُ لي بوضوح ، ولا اشمل في احكامي الا ما ظهر لي بجلاء ودقة لا يبقى معها مجال للشك . »

٢) المختارات : ص ٣٣

والعقل ما شأنه ؟

ان للعقل اوليات تبدو ثابتة ، من مثل « العشرة اكثر من الثلاثة، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً[١] . » وكاد الغزالي يركن الى عقله ، لولا شبهات عرضت له : لقد كان يثق بالحس الى ان اتى حاكم العقل فكذّبه ، فلعلّ وراء العقل حاكماً اخر ، اذا تجلى ، كذّبه وضلّله! ثم الا نعتقد في النوم اموراً ، وتظهر لنا اليقظة ضلالها،فلمَ لا نكون في شبه نوم ، ويكون الموت يقظة واهمٍ مخدوع ؟ ويدّعي الصوفية انهم يشاهدون في احوالهم اموراً لا توافق ما يراه العقل ، افلا تكون الحالة الصوفية طريق الانسان الى الحق ؟[٢] .

عرضت للغزالي هذه الشبهات ، وخطرت هذه الخواطر ، ففقد الثقة بعقله ، بعد ان فقدها بحسه. ودام في شكه هذا قريباً من شهرين، هو فيهما « على مذهب السفسطة ، بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال[٣] » . وهكذا تطرق الغزالي من شك الى شك ، من الشك في ايمانه الى الشك في عقله!

---

١) المختارات : ص ٣٣

٢) ان الغزالي يستقي شبهات شكه من الشكاك اليونان . وقد ردّ اناسيداموس هذه الشبهات الى عشر ، وهي تعود في جوهرها الى ان الحقيقة نسبيّة ، تختلف :

ا – حسب الحالات المختلفة من نوم ويقظة ، وصحة ومرض ، وصحو وسكر، وحب وبغض . . .

ب – حسب المسافات والامكنة ، فتبدو السفينة البعيدة صغيرة ثابتة ، حتى اذا اقتربت بدت كبيرة متحركة، وتبدو العصا منكسرة في الماء، مستقيمة خارجه . . .

ج – باختلاف العادات والقوانين والاراء ، فالفرس يجيزون ترويج الابناء من امهاتهم،ويجيز المصريون زواج الاخوة من اخواتهم،ويحظر القانون اليوناني كل ذلك .

واختلافات الاديان ومذاهب الفلاسفة مشهورة .

٣) المختارات : ص ٣٤

الخروج من الشك في العقل :

حاول الغزالي الخروج من شكه في عقله بدليل ، فلم يتيسر له ذلك ، وكيف يستقيم دليل والاوليات غير مسلّم بها ؟

ودام الغزالي في شكه شهرين عادت بعدهما اليه الثقة بالاوليات العقلية ، لا بنظم دليل وترتيب كلام،بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر.

على ان الغزالي ، بعد ان يسهب في وصف هذا النور السماوي ، ينتهي فجأة بهذه النتيجة :« والمقصود من هذه الحكايات ان يُعمَل كمال الجد في الطلب حتى يُنتهى الى طلب ما لا يُطلب . فان الاوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة ، والحاضر اذا طُلب فُقِد واختفى[١] . » وهذا شبه دليل عقلي خلاصته ان الاوليات هي اوضح شيء في نظر العقل، فلا تحتاج الى دليل لاثبات صحتها،بل لا يمكن ايجاد مثل هذا الدليل.

الخروج من الشك في الايمان :

خرج الغزالي من شكه في عقله ، فبقي ان يخرج من شكه في ايمانه ، وان يستقر على عقيدة ومذهب .

وشرع الغزالي فرأى ان الحق لا يتجاوز احدى فرق اربع :الكلام، والفلسفة، والباطنية ، والصوفية . فأخذ يستعرض هذه الفرق ، ويوجز تعاليمها ، وينقدها :

١ _ الكلام :

اما الكلام فغايته حفظ عقيدة اهل السنّة ، وحراستها عن تشويش اهل البدعة .

ويرى الغزالي في الكلام نقصين : الاول هو اعتماده على مقدّمات

١) المختارات : ص ٢٥

تسلّمها من التقليد او من إجماع الامة ، او من مجرّد القبول من القرآن والاخبار ، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلّم سوى الضروريات . والثاني هو خوضه في استخراج مناقضات الخصوم ، وتقصيه في البحث عن حقائق الامور ، وهذا لا يبدد ظلمات الحيرة او يشرح اختلافات الخلق . واذا الكلام لا يحوي الحق الشافي .

٢ ـ الفلسفة : كفر وبدع :

وانتقل الغزالي الى درس الفلسفة « بمجرد المطالعة ، من غير استعانة باستاذ[1] » ، وفي اوقات مختلسة اثناء تدريسه في بغداد . واطّلع على منتهى علومها « في اقل من سنتين[1] » ، ثم واظب على التفكر بها ، بعد فهمها ، « قريباً من سنة[1] » ، يعاودها ويرددها حتى يتبين ما فيها من خداع وتلبيس[2] .

انتهى الغزالي من درس الفلاسفة فاذا هم اقسام ثلاثة : دهريون جحدوا الصانع ، وطبيعيون آمنوا بالله انما جحدوا خلود النفس ، والهيون — امثال سقراط وافلاطون وارسطو وابن سينا والفارابي — آمنوا بالله وخلود النفس ، انما كفروا في امور وأبدعوا في اخرى .

لا يجادل الغزالي الدهريين والطبيعيين ، لانهم زنادقة انكروا الايمان واليوم الآخر ، واصل الايمان هو الايمان بالله واليوم الآخر .

اما الالهيون فبعض علومهم صحيحة او لا تتصل بالدين ، وبعضها — كالطبيعيات والالهيات — اتت بكفر وبدع . والالهيون كفروا في ثلاث

---

١) المختارات : ص ٣٧

٢) واذا استغرق بحثه الفلسفة قريباً من ثلاث سنوات ، ولعله في السنتين الاولين وضع كتاب « مقاصد الفلاسفة » ، ولعله في السنة الثالثة وضع كتاب « تهافت الفلاسفة » . وقد جاء في احدى المخطوطات ان كتاب التهافت قد تم في اول سنة ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥

مسائل : قالوا بقدم العالم ، وانكروا حشر الاجسام ، ونفوا علم الله بالجزئيات . وقد وضع الغزالي كتاب « التهافت » لابطال مذهبهم في ما اتوا من كفر ومن بدع .

٣ ــ الباطنية :

لم تفِ الفلسفة بغرض الغزالي ، ولم ينكشف له عن طريق العقل كل معضل ، فانتقل الى الباطنية .

والباطنية هذه رأت ان الاراء ابدًا متضاربة ، والعقول متنازعة ، فحكمت ببطلان العقل ، وقالت بضرورة امام معصوم يبتّ في الخلاف ، ويفصل في النزاع ، كي لا تفسد العقيدة ، ويلتبس الحق على الناس .

وأئمة الباطنية المعصومون سبعة اولهم علي ، وسابعهم اسماعيل (†٧٦٢م) ابن جعفر الصادق . واسماعيل هذا حيّ لا يموت ، وغائب لا يُرى ، قد بثّ في الناس دعاة يهدون ويرشدون . وان اختلف الدعاة في امر ، او اغلق عليهم مشكل ، عادوا الى الامام واسترشدوه .

ورأى الغزالي عجز العقل ، كما رأوا ، وضرورة الامام المعصوم ، انما لم يسلّم بامام سوى النبي . اجل ان النبي ميت ، ولكن امام الباطنية غائب يستحيل الوصول اليه عند الحاجة . ثم ما علّم هذا الامام ؟ وايّ خلاف ازال ؟ وعليّ رأس الأئمة هل ازال الخلاف ام زاده وقواه؟ وهل يستطيع امام ما عجز الانبياء انفسهم عنه ؟

٤ ــ الصوفية :

واتى دور الصوفية .

طالع الغزالي « قوت القلوب » لابي طالب المكي († ٣٨٨هـ = ٩٩٨) ، وكتب الحارث المحاسبي (†٢٤٣هـ=٨٥٧) ، وما بقي من الجنيد

(+٢٩٧=٩٠٩) والشبلي (+٣٣٤هـ=٩٤٥)، والبسطامي (+٢٦٤هـ=٨٧٧)، وغيرهم من المشايخ، فاذا اخص خواص الصوفية «ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات[1].» واذاً عليه ان يحيا الحياة الصوفية، ويسلك الطريقة، ان يترك التدريس في بغداد، وما يجده من مال وجاه، وان يغادر جوّه العائلي الدافئ، وما يغمره من حب الزوج والبنين، ويذهب زاهداً متأملاً سائحاً، كي يختبر الحالة الصوفية، ويبدي حكماً صائباً فيها.

وهنا يحدثنا الغزالي عن نزاع داخلي عنيف، عن تردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة دام قريباً من ستة اشهر اولها رجب سنة ٤٨٨هـ = ١٠٩٥ . ويخبرنا ان هذا التردد افضى به الى مرض بطلت معه قوة الهضم، وضعفت القوى، وعقل اللسان عن التدريس، وقطع الاطباء طمعهم من العلاج.

وانتهى هذا التردد بان سهل الله على قلبه الزهد، سهّل عليه الاعراض عن الجاه والمال والاولاد، فترك كل شيء، وغادر بغداد في ذي القعدة سنة ٤٨٨هـ = ١٠٩٥ .

غادر الغزالي بغداد رغم الحاح الولاة بالبقاء، ولوم ائمة الدين له. وقد تظاهر بالذهاب الى مكة، وهو ينوي السفر الى الشام، حذراً من ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمه في المقام بالشام.

سافر الغزالي الى الشام، حيث اقام سنتين، ثم قصد اورشليم والحجاز، معتكفاً على العزلة، ومجاهدة النفس، وتصفية القلب.

لسنا نعلم بالضبط كم اقام الغزالي في اورشليم والحجاز، انما نعلم ان حنيناً جدّ فيه الى الاهل والاطفال، وان هذا الحنين قد اشتدّ وطغى، واذا بالغزالي يعود الى وطنه بعد ان كان عزم الا يعود ابداً.

---

١) المختارات : ص ٤٠

على ان العودة لم تصرفه عن الحياة الصوفية ، وبعد عشر سنين من تركه التدريس في بغداد ، وصل الى هذا الرأي في الصوفية: الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، سيرتهم احسن السير ، واخلاقهم ازكى الاخلاق ، لان جميع حركاتهم وسكناتهم « مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة ، على وجه الارض ، نور يُستضاء به[1] ».

٭

وهكذا انتهى الغزالي من بحثه للفرق ونقدها ، واستقر رأيه على ان الحق في الصوفية ، فاعتنقها مذهباً له .

٣ – نقد رواية المنقذ

على ان رواية الغزالي في المنقذ ، رواية شكوكه وبحثه وانتهائه الى التصوف ، ملأى بالمتناقضات ، مفتقرة الى نقد وتصحيح . واليك اهم ما نأخذ على هذه الرواية :

١ _ خروج الغزالي من شكه في عقله غير منطقي :

ان عقلاً شكَّ في قدرته لا يسعه الاطمئنان الى نور ظهر له او دليل اقنعه ، دون ان يعبث بالمنطق . والحال ان الغزالي بعقله رأى النور الذي قذفه الله في صدره ، وبعقله رأى ان الاوليات واضحة بذاتها ، لا يُطلب عليها برهان !

٢ _ حصر الغزالي الحق على اربع فرق امر غريب :

حين يشكّ انسان في ايمانه ، وينوي البحث عن الايمان الحق ، عليه ان يستعرض اهم اديان عصره ، ومذاهب بيئته ، فلماذا لم يقم الغزالي بهذا البحث الشامل ، وكيف امكنه ان يفترض – دون اي بحث

(١) المختارات : ص ٤٤

سابق – ان الحق لا يعدو احدى اربع فرق: الكلام والفلسفة والباطنية والصوفية ؟ !

٣ – نقد الغزالي للفرق نقد مسلم مؤمن لا نقد من يبحث عن ايمانه ضائع:

ان الغزالي اقبل على نقد الفرق ، بعد ان اكّد لنا خلعه كل تقليد، وكل ايمان ، واكّد اتخاذه اوليات العقل اساساً وحيداً للبحث .

وتقيد الغزالي بمنطق مقدماته حين نقد الكلام ، فعاب عليه استناده الى غير الضروريات العقلية ، واهتمامه بالرد على الخصوم اكثر من اهتمامه بالبحث عن الحق .

على ان الغزالي قد خرج عن المنطق كل الخروج حين اقبل على نقد باقي الفرق ، فنقدها كرجل مؤمن ، وعاب عليها ما عاب باسم الايمان !

ألم يسلّم بعصمة الرسول حين ردّ على الباطنية ؟ ألم يحكم على الفلاسفة بالزندقة والكفر لانهم انكروا حقائق ايمانية ؟ ألم يرَ اخلاق الصوفية افضل الاخلاق لانها مقتبسة من نور النبوة ، وليس وراء نور النبوة نور ؟

ان نقد الغزالي للفرق هو نقد مؤمن في مجمله ، فكيف يتفق وموقفه الاساسي من البحث عن صحة الايمان ؟

٣ – فرض

واذاً علينا الّا نتخذ رواية المنقذ على انها رواية صحيحة ، والا نستند اليها لمعرفة تطور تفكير الغزالي .

بل لا بد لنا من حلّ متناقضات هذه الرواية ، اذا شئنا الا نقف عند النقد ، وان نرى نوع تفكير الغزالي ، وتطور هذا التفكير . واليك خلاصة ما نرى :

١ ــ نظرية المذاهب الثلاثة :

يرى الغزالي ان لكل كامل ثلاثة مذاهب :

احدها هو المذهب الرسمي ، مذهب الآباء والبيئة ، الذي يتعصب له الانسان ويباهي به .

والثاني مذهب يستعمل في الارشاد ، ويتغير بتغير المسترشد ، مراعياً فهمه وتفكيره .

والثالث مذهب يعتقده الرجل سراً بينه وبين الله ، لا يطلع عليه غير الله ، او من شاركه فيه[1] .

٢ ــ تطبيق النظرية على الغزالي :

واذا كانت هذه نظرة الغزالي الى المذاهب ، نستطيع ان نثبت الامور التالية :

ا ــ كان للغزالي مذهب رسمي ، هو مذهب السنّة ، وقد دافع عنه في كتبه الكلامية ، فهاجم الباطنية ، وبدّع الفلاسفة وكفّر . وهذا المذهب لم يظهر فيه شكاً ، حتى في اعنف ساعات شكه ، يوم كان يدرّس في بغداد .

ب ــ وكان الغزالي يبحث ، في سرّه ، عن مذهب يعتقه بينه وبين ربه . ان مذهبه الرسمي ظل الى زمن مذهبه الباطني ، ولكنه منذ صباه بدأ يشك في هذا المذهب ، وبلغت شكوكه ذروتها اثناء تدريسه في بغداد . هذا الشك لم يبح به ، ولم يكتب عنه ، بل كتمه في نفسه ، كلَّ الفترة التي كان يقاسي فيها ريبه وتردده . اما يوم خرج منه فقد

---

١) انظر المختارات : ص ٥١-٥٢

تحدث عنه في اكثر من نص ، في المنقذ وفي غيره[1].

ج – واذاً لقد شكّ الغزالي حقاً ، شك في عقله وشك في ايمانه. على ان هذا الشك ما كان جارفاً ، هادماً ، بل كان تردداً وريباً. شك الغزالي في عقله شكاً خفيفاً عارضاً ، لم يدم سوى شهرين ، وخرج منه لأن شكّ العقل في قدرته لا يقوى طويلاً على الزمن.

وشك الغزالي في ايمانه شكاً رفيقاً طوراً ، وعنيفاً آخر ، وطال زمن هذا الشك ، ولكنه لم يبلغ مرةً واحدة الى طرح كل ايمان ، وخلع كل عقيدة . وقد انتهى هذا الشك بمذهب اختياري يؤمن ، على ما نظن ، بالاسلام ديناً ، وبالتصوف مذهباً، وببعض نظريات الفلاسفة اراء.

د – وجعل الغزالي من التصوف خير ثمرة للاسلام ، وخير طريق للمؤمن ، وراقه ان يكتب فيه ويدعو اليه .

وليس كتاب المنقذ ، في نظرنا ، سوى دعوة الى التصوف . واذاً هو من نوع الكتب التي يراد بها ارشاد الناس الى الحق ، والتي يستعمل فيه صاحبه ما يقنع المسترشد . ولما كان الغزالي يتجه في ارشاده الى

---

١) جاء في جواهر القرآن (ص ٤٤–٤٦) ، في معرض الحديث عن فئة من الناس لم تفتح لهم طريق المعاني الروحانية في القرآن : « تشوشت عليهم الظواهر ، وانقدحت عندهم اعتراضات عليها ، وتخايل لهم ما يناقضها ، فبطل اصل اعتقادهم في الدين ، واورثهم ذلك جحوداً باطناً في الحشر والنشر ، والجنة والنار ، والرجوع الى الله تعالى بعد الموت ، واظهروها في سرائرهم ، وانحلّ عنهم لجام التقوى .. ولسنا نستبعد ذلك ، فلقد تعثرنا في اذيال هذه الضلالات مدة ، لشؤم اقران السوء وصحبتهم ، حتى ابعدنا الله عن هفواتها ، ووقانا من ورطاتها .»

وجاء في ميزان العمل ، بعد حديثه عن كثرة المذاهب : « ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشككك في اعتقادك الموروث، لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعاً . اذ الشكوك هي الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال ، نعوذ بالله من ذلك .»

المسلمين المؤمنين ، فقد رأى ان يهدم فيهم سلطان التقليد برواية ما عرض له من شكوك ، وان ينقذ الفرق ببراهين مستمدة من ايمانهم . وهذا هو السبب ، على ما نظن ، الذي قطع الصلة بين شك الغزالي ونقده ، وجعل من المنقذ سلسلة متناقضات . لقد كانت غايته استدراج قارئه المسلم الى تصوفه ، لا عرض تطوره الفكري عرضاً واقعياً اميناً .

ه — على ان الغزالي ، ان يبح بتصوفه ، ويدعُ اليه، فلأنه استطاع ان يلائم بينه وبين مذهبه الرسمي . ولكن أما كان يرى ، في مذهبه السرّي ، بعض ما يرى الفلاسفة ، ويخالف مذهب السنة الرسمي ؟ هذا ما سنبحثه في غير هذا المكان ، ان يسّر الله .

مصادر الدراسة

ان ما استندنا اليه ، في درسنا الغزالي ، من مصادر عربية واعجمية للائحة تطول . لهذا آثرنا اثبات اهم تآليف الغزالي المطبوعة ، ملمين الماماً بموضوعها الاساسي . وانا نقسم هذه التآليف اقساماً اربعة :

ا ـ في الفقه

١ – المستصفى في علم الاصول : كتاب في اصول الفقه ، وضعه الغزالي بعد عودته الى التدريس في نيسابور . وهذه الاصول هي : كتاب الله ، والسنة ، واجماع المسلمين .

٢ – الوجيز في مذهب الامام الشافعي .

ب ـ في الكلام

نثبت تحت هذا العنوان ما ألفه الغزالي عرضاً لعقيدة السنة ، او دفاعاً عنها ضد الباطنية والفلاسفة ، لانا نعد كل ذلك – كما يعده الغزالي نفسه – متصلاً بعلم الكلام :

١ – الاقتصاد في الاعتقاد : المطبعة الادبية ، مصر : كُتب قبل احياء علوم الدين ، وهو بحث في ذات الله ، وصفاته ، وافعاله ، ورسله ، على طريقة المذهب الاشعري اجمالاً .

٢ – إلجام العوام عن علم الكلام : ردّ على الحشوية ، على اعتقادها في

الله ما يتقدس عنه من الصورة واليد ، والقدم ، والجلوس على العرش ، وما يجري مجراه .

٣ – فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة : الكفر تكذيب الرسول . وان لتأويل القرآن قوانين ، يجب التقيد بها ، للسلامة من الكفر .

•

٤ – القسطاس المستقيم : احد كتب الغزالي الكثيرة في الرد على الباطنية . ويرى الغزالي ان معرفة المنطق كافية لتمييز الحق عن الباطل ، فالاستغناء عن الامام المعصوم . والكتاب في جوهره عرض لقياسات منطقية .

•

٥ – مقاصد الفلاسفة : كتاب ألفه الغزالي اثناء تدريسه في بغداد ، وقد عرض فيه فلسفة الفارابي وابن سينا ، تمهيداً للرد عليها في كتاب التهافت : « ان الوقوف على فساد المذاهب ، قبل الاحاطة بمداركها ، محال ، بل هو رمي في العماية والضلال . فرأيت ان اقدّم على بيان تهافتهم كلاماً وجيزاً ، مشتملاً على حكاية مقاصدهم من علومهم المنطقية ، والطبيعية ، والالهية ، من غير تمييز بين الحق منها والباطل . »

٦ – تهافت الفلاسفة : المطبعة الكاثوليكية ، بيروت : هو اعنف حملة شنها متكلم على الفلسفة . وقد حاول الغزالي اظهار ما في فلسفة الفارابي وابن سينا من كفر ومن بدع ، وما في نظرياتها من تناقض ، وفي ادلتها من وهن . وقد دار رده حول عشرين مسألة ، تناول فيها قدم العالم ، وطبيعة الله ، وروحانية النفس

ونعد هذا الكتاب تأليفاً كلامياً ، لا تأليفاً فلسفياً ، او قل نوعاً من الجدل المزمن بين الدين والفلسفة . ذاك ان الغزالي لا يهدم فلسفة معلومة – فلسفة الفارابي وابن سينا – ليبني فلسفة اخرى خاصة ، وانما

يهدم الفلسفة جملة ، ويحط من قدرة العقل ، ليرفع من قـدر الوحي ، ويعلي من شأن النبوة. وان الغزالي بعد حريص على الهدم واظهار التناقض، اكثر مما هو حريص على اظهار الحق او الاقتناع بالحجة .

وان ما اتى به الغزالي ، اثناء جدله ، من براهين عقلية ، ونظريات فلسفية طريفة ، لامر اقتضاه الجدل ، وما نظن الغزالي – كما يبوح هو نفسه – معتقداً كل ما يقول .

٧ – معيار العلم : كتاب في المنطق ، اراد من وضعـه تأليفاً في هذا الموضوع ، واطلاع القارئ على ما استعمله من اصطلاحات منطقية في كتاب التهافت .

ج – في التصوف :

١ – احياء علوم الدين : المطبعة العامرة ، مصر ، ١٣٢٦ هـ :

غرّة كتب الغزالي ، شرع في تأليفه اثناء سياحاته الصوفية ، ولعله لم ينجزه في صيغته النهائية الا في اواخر عمره .

قال الغزالي ممهداً لهذا الكتاب : « رأيت الاشتغال بتحرير هـذا الكتاب... احياء لعلوم الدين ، وكشفاً عن مناهج الائمة المتقدمين ... وقد اسسته على اربعة ارباع ، وهي ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات ...

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب : كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقـائد ، وكتاب اسرار الطهارة ، وكتاب اسرار الصلاة ، وكتاب اسرار الزكاة ، وكتاب اسرار الصيام ، وكتاب اسرار الحج ، وكتاب آداب تـلاوة القرآن ، وكتاب الاذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الاوراد في الاوقات .

واما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الاكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب احكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع اصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة واخلاق النبوّة .

واما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين ، شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

واما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والانس والرضى ، وكتاب النية والصدق والاخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت ».

وكأن هذا الكتاب دائرة معارف لما علّم الاسلام في العقائد والاخلاق ، وانه لاعمق كلمة فاهت بها خلوات الغزالي .

٢ - كتاب الاربعين في اصول الدين : كُتب بعد كتاب الاحياء ، وهو مثله اربعة ارباع ، وكأنه مختصر له .

٣ - كيمياء السعادة : بهذه الكيمياء يتحول القلب من الرذيلة الى الفضيلة ، على نحو ما جاء في كتاب «عجائب القلب» من ربع المهلكات .

٤ - الرسالة اللدنية : العلوم اما انسانية كالعلوم الشرعية والفلسفية ،

واما ربانية او لدنية ، وهي ما تنال بالالهام الصوفي . والعلم اللدني يغنيك عن العلم الانساني .

٥ – رسالة الطير : رسالة رمزية صوفية : اجتمعت انواع الطيور ، واختارت العنقاء لها ملكاً . ولما كانت العنقاء تسكن الغرب ، جدّت الطيور في طلبها ، حتى اذا مات اكثرها في الطريق ، وبلغ الباقون الغاية ، علموا انهم انما بارادة الملك قد اتوا اليه : « انتم بانفسكم جئتم ، ام نحن دعوناكم ؟ انتم اشتقتم ام نحن شوقناكم ؟ نحن اقلقناكم فحملناكم في البر والبحر . »

٦ – ايها الولد : رسالة يحث فيها الغزالي تلميذاً انهى علومه على ان يقرن العلم بالعمل . كتبها بعد احياء علوم الدين .

٧ – ميزان العمل : مطبعة كردستان : قال الغزالي في مقدمته : « نبين ان الفتور عن طلب السعادة حماقة ، ثم نبين ان لا طريق الى السعادة الا بالعلم والعمل ، ثم نبين العلم وطريق تحصيله ، ثم نبين العمل المسعد وطريقه . »

٨ – الدرة الفاخرة : وصف لما يحدث للانسان بعد الموت .

٩ – جواهر القرآن : مطبعة كردستان ، مصر : فيه تقسيم للعلوم الدينية .

د – في ترجمة حياته

المنقذ من الضلال : مطبعة الترقي بدمشق ، ١٩٣٩ : يطلعنا الغزالي ، في هذا الكتاب ، على شكه ، وبحثه عن الحقيقة في علم الكلام ، والفلسفة ، والباطنية ، والصوفية ، وعلى ما جرى له خلال ذلك من حالات عقلية ونفسية ، وحوادث خارجية مهمة .

مختارات

لقد اهملنا ، في مختاراتنا من الغزالي ، كتاب تهافت الفلاسفة ، كما اهملناه – او كدنا – في دراستنا ، آملين العودة اليه في دراسة مستقلة .

وقد حاولنا اختيار نصوص بارزة ، تروي قصة حياة ، او تعبر عن رأي .

وقد رأينا ان نلائم بين الدراسة والمختارات ، فنشرنا ، في هذا الجزء ، النصوص التالية :

١ – من المنقذ من الضلال : اهم نصوص الرسالة ، موجزين ما اهملنا منها .

٢ – من ميزان العمل : معنى المذهب – اعمل وان غير مؤمن !

٣ – من كتاب الاحياء : نصاً في علم الكلام .

رسالة

المنقذ من الضلال

غاية الرسالة

سألتني ، أيها الاخ ، أن أبثّ إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفِرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولًا من علم الكلام،وما اجتويتهُ ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين ، لدرك الحق ، على تقليد الامام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخرًا من طريقة التصوف، وما انجلى لي، في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد، مع كثرة الطلبة ، وما دعاني الى معاودتي بنَيسَابُور ، بعد طول المدة ، فابتدرت لاجابتك الى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك . . .

الشك في الايمان

اعلموا – أحسن الله تعالى ارشادكم ، وألان للحق قيادكم – ان اختلاف الخلق في الاديان والملل ، ثم اختلاف الائمة في المذاهب ، على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحرٌ عميق غرق فيه الاكثرون ، وما نجا منه الا الاقلون . وكل فريق يزعم انه الناجي . . .

ولم ازل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين، إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، اقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، واتفحص

عن عقيدة كل فرقة، واستكشف اسرار مذهب كل طائفة ...

وقد كان التعطش الى درك حقائق الامور دأبي وديدني من اول امري وريعان عمري، غريزةً وفطرةً من الله وضعتا في جبلّتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلّت عني رابطة التقليد، وانكسرت عليّ العقائد الموروثة، على قرب عهدٍ بسنّ الصبا، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهوُّد، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام. وسمعت الحديث المرويّ عن رسول الله، صلى عليه وسلم، حيث قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ»، فتحرك باطني إلى حقيقة الفطرة الاصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات، واوائلها تلقينات، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات.

ما اليقين ؟

فقلت في نفسي : أولاً، إنما مطلوبي العلمُ بحقائق الامور، فلا بدَّ من طلب حقيقة العلم ما هي : فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك. بل الامان من الخطإ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنةً لو تحدّى باظهار بطلانه، مثلاً، من يقلب الحجر ذهباً، والعصا ثعباناً، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً. فاني إذا علمت ان العشرة اكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل : لا، بل الثلاثة اكثر، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً، وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشكّ بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه. فأما الشك فيما علمته، فلا.

ثم علمت ان كل ما لا اعلمه على هذا الوجه، ولا أتيقّنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به، ولا أمان معه. وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني.

الشك في الحس والعقل

ثم فتشت عن علومي، فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة، إلا في الحسيات والضروريات. فقلت: الآن بعد حصول اليأس، لا مطمع في اقتباس المشكلات الا من الجليّات، وهي الحسيات والضروريات. فلا بدّ من إحكامها أولاً لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات، وأماني من الغلط في الضروريات... هو أمان محقّق لا غدر فيه ولا غائلة له. فأقبلت بجدّ بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات، وانظر هل يمكنني ان اشكك نفسي فيها. فانتهى بي طول التشكيك الى ان لم تسمح نفسي بتسليم الامان في المحسوسات ايضاً، واخذ يتسع الشك فيها ويقول: من اين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة، بعد ساعة، تعرف انه متحرك، وانه لم يتحرك دفعةً بغتةً، بل على التدريج ذرةً ذرةً، حتى لم تكن له حالة وقوف؟ وتنظر الى الكوكب فتراه صغيراً، في مقدار دينار، ثم الادلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار؟ هذا وامثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكامه، ويكذّبه حاكم العقل ويخوّنه تكذيباً لا سبيل الى مدافعته. فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات ايضاً. فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الاوليات، كقولنا: العشرة اكثر من الثلاثة، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً، موجوداً معدوماً، واجباً محالاً. فقالت

المحسوسات : بمَ تأمن ان تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنتَ واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذّبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمرّ على تصديقي ؟ فلعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر ، اذا تجلى ، كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه . وعدم تجلي ذلك الادراك لا يدل على استحالته . فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وايدت إشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد في النوم اموراً،وتتخيل احوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك اصل وطائل ؟ فبمَ تأمن ان يكون جميع ما تعتقده في يقظتك ، بحس او عقل ،هو حق بالاضافة الى حالتك التي انت فيها ، لكن يمكن ان تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها ؟ ! فاذا وردت تلك الحالة ، تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها . ولعل تلك الحالة ما يدّعيه الصوفية انها حالتهم ، اذ يزعمون انهم يشاهدون في احوالهم ، التي لهم ، اذ غاصوا في انفسهم وغابوا عن حواسهم ، احوالاً لا توافق هذه المعقولات.ولعل تلك الحالة هي الموت ، اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا». فلعل الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة ، فاذا مات،ظهرت له الاشياء على خلاف ما يشاهده الآن . . .

فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً ، فلم يتيسر ، اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الاولية ، فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل . فاعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى

شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولةً ، موثوقاً بها على أمن ويقين . ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر . وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف . فمن ظن ان الكشف موقوف على الادلة المحرَّرة ، فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة. ولما سئل رسول الله عليه السلام عن « الشرح » ومعناه ، في قوله تعالى : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام. » فقال : « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب . » فقيل : « وما علامته ؟ » فقال : « التجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود . » وهو الذي قال عليه السلام فيه : « ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره.» فمن ذلك النور ينبغي ان يطلب الكشف. وذلك النور ينبجس من الجود الالهي، في بعض الاحايين ، ويجب الترصد له ، كما قال عليه السلام : « ان لربكم في ايام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها ! ».

والمقصود من هذه الحكايات ان يُعمل كمال الجد في الطلب ، حتى ينتهي الى طلب ما لا يطلب . فان الاوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة . والحاضر اذا طلب فقد واختفى . . .

اصناف الطالبين

ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبن عندي في أربع فرق :

١ – المتكلمون : وهم يدّعون أنهم أهل الرأي والنظر .

٢ – الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

٣ – الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ - الصوفية : وهم يدَّعون أنهم خواصُّ الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة .

فقلت في نفسي : الحق لا يَعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سُبُلَ طلب الحق ، فإن شذَّ الحق عنهم ، فلا يبقى في دَرْك الحق مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته ، إذ من شرط المقلِّد أن لا يعلم أنه مقلِد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شَعْبٌ لا يُرْأب ، وشعثٌ لا يُلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة .

فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفِرق ، مبتدئاً بعلم الكلام ، ومُثنِّياً بطريق الفلسفة ، ومثلثاً بتعاليم الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية :

١ ـ علم الكلام : مقصوده وحاصله

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصّلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنّفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير وافٍ بمقصودي . وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة . فقد ألقى الله تعالى الى عباده ، على لسان رسوله ، عقيدةً هي الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والاخبار . ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة اموراً مخالفة للسنة ، فلهجوا بها وكادوا يشوّشون عقيدة الحق على اهلها . فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرّك دواعيهم لنصرة السُّنّة ... ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدّمات تسلموها من خصومهم، واضطرّهم الى تسليمها : إما التقليد ، أو إجماع الأمة ، او مجرّد القبول من القرآن والأخبار . وكان اكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم

بلوازم مسلّماتهم . وهذا قليل النفع في حق من لا يُسلِّم سوى الضروريات شيئاً اصلاً . فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت اشكوه شافياً ...

٢ ـ الفلسفة

ثم إني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة . وعلمت يقيناً انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي اعلمهم في اصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطّلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غَورٍ وغائلة ...

فشمّرت عن ساق الجد ، في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك في اوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا ممنوٌّ بالتدريس والإفادة لثلاثمئة نفس من الطلبة ببغداد . فأطلعني الله سبحانه وتعالى ، بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلَسة ، على منتهى علومهم في اقل من سنتين . ثم لم أزل اواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، أعاوده وارددّه وأتفقد غوائله وأغواره ، حتى أطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخييل ، اطلاعاً لم اشكّ فيه .

فاسمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم ، فإني رأيتهم اصنافاً ، ورأيت علومهم اقساماً ؛ وهم على كثرة اصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والاقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه .

ثم يقسم الغزالي الفلاسفة ثلاثة اقسام : دهريين جحدوا الله ، وطبيعيين آمنوا بالله انما انكروا خلود النفس واليوم الاخر ، والهيين – كسقراط وافلاطون وارسطو عند اليونان ، وكابن سينا والفارابي من متفلسفة الاسلام – قد آمنوا بالله والاخرة ، انما كفروا بعقائد واتوا ببدع .

الدهريون والطبيعيون زنادقة ، لا يرى الغزالي الى جدالهم حاجة. اما الالهيون فلسفتهم اقسام ستة : رياضية ، ومنطقية ، وسياسية ، وخلقية ، وطبيعية ، والهية . الرياضيات والمنطق والسياسة والاخلاق علوم صحيحة . الطبيعيات خالفت الدين في مسائل معينة .

اما الالهيات

اما الالهيات ففيها اكثر اغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها . ولقد قرب مذهب ارسطاطاليس فيها من مذهب الاسلاميين ، على ما نقله الفارابي وابن سينا . ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين اصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها،وتبديعهم في سبعة عشر . ولابطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب التهافت .

اما المسائل الثلاث، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم :

١ — ان الاجساد لا تحشر ، وانما المُثاب والمعاقب هي الارواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية ، لا جسمانية . ولقد صدقوا في اثبات الروحانية ، فانها كائنة ايضاً ، ولكن كذبوا في انكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة في ما نطقوا فيه .

٢ - ومن ذلك قولهم : ان الله تعالى يعلم الكليات ، دون الجزئيات . وهذا ايضاً كفر صريح ، بل الحق انه «لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الارض . »

٣ — ومن ذلك قولهم بقدم العالم وازليته ، فلم يذهب احد من المسلمين الى شيء من هذه المسائل

واما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم انه عليم بالذات ، لا بعلم زائد ، وما يجري مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

٣ — مذهب التعليم وغائلته

ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيف منه ، علمت ان ذلك ايضاً غير وافٍ بكمال الغرض ، وان العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات. وكان قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحدّثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، عنّ لي ان البحث عن مقالاتهم ، لأطّلع على ما في كتبهم . ثم اتفق ان ورد عليّ أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعني مدافعته ، وصار ذلك مستحثاً من خارج ، ضميمة للباعث الأصلي من الباطن . فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم...

ودعواهم انه : « لا يصلح كل معلم، بل لا بُدّ من معلم معصوم.» وظهرت حجتهم في إظهار الحاجة الى التعليم والمعلم، وضعُف قول المنكرين في مقابلته ، فاغترّ بذلك جماعةٌ وظنوا ان ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا ان ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة الى المعلم ، وانه لا بُدّ وان يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد عليه السلام. فإذا قالوا : « هو ميّتٌ » فنقول : « فمعلمكم غائب.» فاذا قالوا : « معلمنا قد علّم الدعاة وبثّهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا او اشكل عليهم مشكل . » فنقول : « ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم اذ قال الله تعالى : « اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي »[1] . وبعد كمال التعليم لا يضرّ موت المعلّم كما لا يضرّ غيبته .

[1] « سورة المائدة » ، الآية ٦

ثم يتطرق الغزالي الى تفاصيل فيرى ان الخلاف بين الناس برفع بواسطة المنطق الذي استخرجه من القرآن في كتابه القسطاس المستقيم ، كما يرى ان امام الباطنية لم يرفع ذلك الخلاف ، بل كان الخلاف الذي احدثه عليّ رأس الائمة المعصومين سبباً لسفك الدماء وتخريب البلاد .

٤ ــ الصوفية

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلتُ بهمّتي على طريق الصوفية، وعلمت ان طريقتهم إنما تتمّ بعلم وعمل . وكان حاصل عملهم قطعَ عقبات النفس ، والتنزّه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل الى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليّ من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل : « قوت القلوب » لأبي طالب المكي » ، وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات المأثورة عن « الجُنيد » و « الشِبلي » و « ابي يزيد البسطامي » ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصّلت ما يمكن ان يُحصَّل من طريقهم بالتعلّم والسماع . فظهر لي ان اخص خواصهم مــا لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدُّل الصفات . . .

وكان قد حصل معي ــ من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية ــ إيمان يقينيٌ بالله تعالى ، وبالنُبوّة ، وباليوم الآخر . فهذه الأصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت في نفسي ، لا بدليل معيّن محرّر، بل بأسبابٍ وقرائن وتجاريبَ لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع في سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكفّ النفس عن الهوى . وان رأس ذلك كله قطعُ علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود، والاقبال بكُنه

الهمة على الله تعالى . وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت احوالي ، فاذا انا منغمس في العلائق ، وقد احدقت بي من الجوانب. ولاحظت اعمالي ، واحسنها التدريس والتعليم ، فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة .

ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت . فتيقنت اني على شفا جرف هار ، واني قد أشفيت على النار ، ان لم اشتغل بتلافي الاحوال.

فلم ازل اتفكر فيه مدة ، وانا بعد على مقام الاختيار ، أُصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الاحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً واقدّم فيه رجلاً ، واؤخر عنه اخرى . لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، الا وتحمل عليها جند الشهوة حملة فتفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المُقام ، ومنادي الايمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبقَ من العمر الا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما انت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ! فان لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وان لم تقطع الآن هذه العلائق ، فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان، ويقول : « هذه حال عارضة ، اياك ان تطاوعها ، فانها سريعة الزوال . فان اذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشان المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والامن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت اليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة.»[1]

---

[1]) ان هذا النزاع النفسي ، الذي هزّ الغزالي في اعماقه ، لشبيه بما حدث للقديس اغسطينوس ، عندما دعاه الله اليه . واليك مقطعاً من « الاعترافات » يصور لك تلك العاصفة الداخلية :

فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة،قريبا من ستة اشهر ، اولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمئة. وفي هذا الشهر، جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت اجاهد نفسي ان ادرّس يوماً واحداً ، تطييباً لقلوب المختلفة اليّ،فكان لا ينطلق لساني بكلمة ، ولا استطيعها البتّة، حتى اورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ، ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لقمة . وتعدّى الى ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : هذا امر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بان يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لما احسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فاجابني الذي «يجيب المضطر اذا دعاه»[1]،وسهّل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والاولاد والاصحاب. واظهرت عزم الخروج الى مكة ، وانا ادبّر في نفسي سفر الشام ، حذراً ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي في المقام بالشام . فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد ، على عزم ان لا اعاودها ابداً . واستهدفت لائمة اهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوز ان يكون الاعراض عما كنت فيه سبباً دينياً، اذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الاعلى في الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

« في قلقي القاسي كنت اوبخ نفسي اكثر من العادة ، وانقلب متمرغاً في قيودي لاكمل قطعها . . . كنت مقيداً بتوافه سافلة ، باباطيل مخجلة ، بصديقات الامس اللواتي كن كاهن يجذبنني بثياب الجسد، ويهمسن في اذني : اتتركنا؟ ولن نسكن معك الى الابد! وسيحرم عليك كذا وكذا الى الابد! وما كانت ، الهي، هذه الاشياء التي يوقظن صورها فيّ ؟ امحُها برأفتك من ذكريات عبدك ! يا لها من فظائع مخجلة ! ».

١) سورة النمل : ٦٢

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ان ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة . واما من قرب من الولاة ، وكان يشاهد الحاحهم في التعلق بي ، والانكباب عليّ ، واعراضي عنهم ، وعن الالتفات الى قولهم ، فيقولون : هذا امر سماوي ، وليس له سبب الا عين اصابت اهل الاسلام ، وزمرة العلم !

ففارقت بغداد ، وفرّقت ما كان معي من المال ، ولم أدّخر إلّا قدر الكفاف ، وقوت الاطفال ، ترخّصاً بأن مال العراق مُرْصد للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم ارَ في العالم مالًا يأخذه العالم لعياله اصلح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلّا العزلة والخلوة ، والرياضة والمجاهدة ، اشتغالًا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصّلته من علم الصوفية . فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم رحلت منها الى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام ، بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسِرْت الى الحجاز

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال الى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعَد الخلق عن الرجوع اليه . فآثرت العزلة بـه ايضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغيّر

---

١) في ط : العلم

في وجه المراد ، وتشوّش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو لي الحال الّا في اوقات متفرقة . لكني مع ذلك لا اقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، وأعود إليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين . وانكشف لي في اثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها . والقدر الذي اذكره لِيُنتفع به : أني علمت يقيناً ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم احسن السير ، وطريقهم اصوب الطرق، واخلاقهم ازكى الاخلاق . بل لو جُمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء، ليغيّروا شيئاً من سيرهم واخلاقهم، ويبدّلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً . فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يُستضاء به .

وبالجملة ، فماذا يقول القائلون في طريقة ، طهارتها — وهي اول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ؟ وهذا آخرها بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها . وهي على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه .

ومن اول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وارواح الانبياء ، ويسمعون منهم اصواتاً ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال ، الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبّر ان يعبر عنها الّا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة ، ينتهي الامر الى قرب ، يكاد يتخيل منه طائفة

الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ. وقد بيّنّا وجه الخطإ فيه في كتاب « المقصد الأسنى » ، بل الذي لابسَتْهُ تلك الحالة لا ينبغي ان يزيد على ان يقول :

وكانَ ما كانَ مِمّا لَستُ أذكُرُهُ فظنَّ خيرًا ولا تَسألْ عَنِ الخَبَرِ[1]

ويتطرق الغزالي الى البحث في النبوة ، فاذا هي معرفة تجوز طور العقل ، بها عُرف الطب والنجوم ، وبها تداوى القلوب ، النوم لها انموذج والتصوف طريق .

اما فتور بعض الخلق – كالفلاسفة وغلاة المتصوفة وغيرهم – في الايمان بالنبوة فيعود الى مزاعم ليس ايسر من افضاحها .

رجوع الى نشر العلم

ثم إني لما واظبت على العُزلة والخَلوة قريباً من عشر سنين ، وبان لي في اثناء ذلك على الضرورة ، من أسبابٍ لا أحصيها ، مرةً بالذوق ، ومرةً بالعلم البرهانيّ ، ومرةً بالقبول الايمانيّ : أن الإنسان خُلِقَ من بدن وقلب ، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم ، الذي يشارك فيه الميّت والبهيمة . وان البدن له صحة بها سعادته ، ومرضٌ فيه هلاكه . وان القلب كذلك له صحة وسلامة ، ولا ينجو « إلّا من اتى الله بقلبٍ سليمٍ » ، وله مرض فيه هلاكه الابدي الاخرويّ ، كما قال تعالى : « في قلوبهم مرضٌ » . وأن الجهل بالله سم مهلكٌ ، وان معصية الله ، بمتابعة الهوى ، داؤه الممرّض . وان معرفة الله تعالى ترياقه المحيي ، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي ، وانه لا سبيل الى معالجته ، بازالة مرضه وكسب صحته ، الا بادوية ، كما لا سبيل الى معالجة البدن إلا بذلك . وكما ان ادوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصيةٍ فيها لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها

---

1) هذا البيت لابن المعتز .

تقليد الاطباء الذين اخذوها من الانبياء ، الـذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الاشيـا. ، فكذلك بان لي ، على الضرورة ، ان ادوية العبادات بحدودها ، ومقاديرها المحدودة المقـدرة من جهة الانبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيهـا تقليد الانبياء الذين ادركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل . . .

فالانبياء اطباء امراض القلوب ، وانما فائدة العقـل وتصرفه ان عرّفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك مـا يُدرك بعين النبوة ، واخذ بايدينا ، وسلّمنا اليهـا تسليم العميان الى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيّرين الى الاطباء المشفقين . والى ههنـا مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزولٌ عما بعد ذلك ، الا عن تفهُّم ما يلقيه الطبيب اليه .

فهذه امور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مـدة الخلوة والعزلة .

ثم رأينا فتور الاعتقادات في اصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلـك بين الخلق ، فنظرت الى اسباب فتور الخلق ، وضعف ايمانهم ، فاذا هي اربعة :

١ — سببٌ من الخائضين في علم الفلسفة .

٢ — وسبب من الخائضين في طريق التصوف .

٣ — وسبب من المنتسبين الى دعوى التعليم .

٤ — وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فاني تتبّعتُ مدةً آحاد الخلق ، اسأل من يقصِر منهم في متابعـة الشرع ، واسأله عن شبهته وابحث عن عقيدته وسرّه ، وقلت لـه : « ما لك تقصِر فيها ؟ فان كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعدُّ لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فانك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما

لا نهاية له بايام معدودة ؟ وان كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ! فدبّر نفسك في طلب الايمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفيّ الذي هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جُرأتك ظاهرًا ، وان كنت لا تُصرح به تجملًا بالايمان وتشرُّفاً بذكر الشرع ! » .

فقائل يقول : « هذا امر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلانٌ من المشاهير بين الفضلاء لا يصلّي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل اموال الاوقاف واموال اليتامى ، وفلان يأكل ادرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ! » وهلم جرا الى امثاله ...

وقائل ثانٍ : يدَّعي علم التصوف ، ويزعم انه قد بلغ مبلغاً ترَقى عن الحاجة الى العبادة !

وقائل ثالث : يتعلّل بشبهة أخرى من شبهات اهل الاباحة !

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع : لقي اهل التعليم فيقول : « الحقُّ مشكل ، والطريق اليه متعسّر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب اولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهل الرأي ، والداعي الى التعليم متحكِّم لا حجة له ، فكيف ادعُ اليقين بالشك ؟ »

وقائل خامس يقول : لست افعل هذا تقليدًا ، ولكني قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وإن حاصلها يرجع الى الحكمة والمصلحة ، وان المقصود من تعبُّداتها : ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما انا من العوام الجهال حتى ادخل في حجر التكليف ، وإنما انا من الحكماء أتبع الحكمة وانا بصير بها ، مستغنٍ فيها عن التقليد ! »

هذا منتهى ايمان من قرأ مذهب فلسفة الالهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وابي نصر الفارابي .

وهؤلاء هم المتجملون بالإسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ، ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظّم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وانواعاً من الفسق والفجور ! واذا قيل له : « ان كانت النبوة غير صحيحة ، فلِمَ تصلّي ؟ » فربما يقول : « لرياضة الجسد ، ولعادة اهل البلد ، وحفظ المال والولد ! » وربما قال : « الشريعةُ صحيحةٌ ، والنبوة حق ! » فيقال : « فلمَ تشرب الخمر ؟ » فيقول : « انما نُهي عن الخمر لانها تورث العداوة والبغضاء ، وانا بحكمتي محترز عن ذلك ، واني اقصد به تشحيذ خاطري . » حتى ان ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها : انه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وان يعظّم الاوضاع الشرعية ، ولا يقصّر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهّياً بل تداوياً وتشافياً . فكان منتهى حالته في صفاء الايمان ، والتزام العبادات ، ان استثنى شرب الخمر لغرض التشافي .

فهذا ايمان من يدّعي الايمان منهم ، وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم انخداعهم ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، اذ اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك مما هو ضروريّ لهم ، على ما بيّنّا علته من قبل .

فلما رأيت اصناف الخلق من ضعف ايمانهم الى هذا الحد بهذه الاسباب ، ورأيت نفسي مليّةً بكشف هذه الشبهة ، حتى كان افضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم ، اعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسّمين من العلماء ، انقدح في نفسي ان ذلك متعيّن في هذا الوقت محتوم . فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عمّ الداء ، ومرض الاطباء ، واشرف الخلق على الهلاك ؟

ثم قلت في نفسي : متى تشتغل انت بكشف هـذه الغمة ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق،عن طرقهم الى الحق، لعاداك اهل الزمان باجمعهم؟ وانى تقاومهم ، فكيف تعايشهم ، ولا يتم ذلك الا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؟

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، وتعللًا بالعجز عن اظهار الحق بالحجة . فقدر الله تعالى ان حرّك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فامر امر الزام بالنهوض الى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الالزام حداً كان ينتهي ، لو اصررت على الخلاف ، الى حدّ الوحشة . فخطر لي ان سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي ان يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطلب عزّ النفس وصونها عن اذى الخلق . . .

فشاورت في ذلك جماعةً من ارباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الاشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية . وانضاف الى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بان هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدّرها الله سبحانه على رأس هذه المئة ، وقد وعد الله سبحانه باحياء دينه على رأس كل مئة . فاستحكم الرجاء وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى الحركة الى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين واربعمئة . وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين واربعمئة . . .

وانا اعلم اني ، وان رجعت الى نشر العلم، فما رجعت! فان الرجوع عود الى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان انشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وادعو اليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . واما الآن، فادعو الى العلم الذي به يُترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه ،هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني . وانا ابغي ان

أصلح نفسي وغيري ، ولست ادري أأصل الى مرادي ام أخترم دون غرضي . ولكني اومن ايمان يقين ومشاهدة انه لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، واني لم اتحرك لكنه حركني ، واني لم اعمل ، لكنه استعملني . فاسأله ان يصلحني اولاً ، ثم يصلح بي ، ويهديني ، ثم يهدي بي ، وان يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، ويرزقني اجتنابه .

ثم يحاول الغزالي اثبات النبوة ، والرد على خصومها ، وينهي الرسالة بوصف العالم الحقيقي :

العالم الحقيقي

ان العالم الحقيقي لا يقارف معصية الا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصي اصلاً ، اذ العلم الحقيقي ما يعرف ان المعصية سم مهلك ، وان الآخرة خير من الدنيا . ومن عرف ذلك ، لا يبيع الخير بما هو ادنى .

وهذا العلم لا يحصل بانواع العلوم التي يشتغل بها اكثر الناس . فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم الا جرأة على معصية الله تعالى . واما العلم الحقيقي ، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي الا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات ، وذلك لا يدل على ضعف الايمان . فالمؤمن مفتن تواب ، وهو بعيد عن الاصرار والاكباب ...

ونسأل الله العظيم ، ان يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وارشده الى الحق وهداه ، والهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد الا اياه .

انتهت الرسالة

معنى المذهب

لعلك تقول : كلامك ، في هذا الكتاب ، انقسم الى ما يطابق مذهب الصوفية ، والى ما يطابق مذهب الاشعرية وبعض المتكلمين ، ولا يفهم الكلام الا على مذهب واحد ، فما الحق من هذه المذاهب ؟ فان كان الكل حقاً ، فكيف يتصور هذا ؟ وان كان بعضه حقاً ، فما ذلك الحق ؟

فيقال لك : اذا عرفت حقيقة المذهب ، لا تنفعك قط ، اذ الناس فيه فريقان :

فريق يقول : المذهب اسم مشترك لثلاث مراتب :

احداها ما يتعصب له في المباهاة والمناظرات .

والاخرى ما يسار به في التعليمات والارشادات .

والثالث ما يعتقده الانسان في نفسه، مما انكشف له من النظريات .

ولكل كامل ثلاثة مذاهب ، بهذا الاعتبار

فاما المذهب ، بالاعتبار الاول ، فهو نمط الآباء والاجداد، ومذهب المعلم ، ومذهب اهل البلد الذي فيه النشو . وذلك يختلف بالبلاد ، والاقطار ، والمعلمين . فمن ولد في بلد المعتزلة، او الاشعرية، او الشفعوية، او الحنفية ، انغرس في نفسه ، منذ صباه ، التعصب له ، والذب دونه، والذم لما سواه . . . ومبدأ هذا التعصب حرص جماعة على طلب الرياسة ، باستتباع العوام ، ولا تنبعث داعي العوام الا بجامع يحمل على التظاهر ، فجعلت المذاهب في تفصيل الاديان جامعاً . فانقسم الناس فرقاً ، وتحركت غوائل الحسد والمنافسة ، فاشتد تعصبهم ، واستحكم به تناصرهم . .

المذهب الثاني ما ينطبق في الارشاد والتعليم، على من جاءه مستفيداً، مسترشداً . وهذا لا يتعين على وجه واحد، بل يختلف بحسب المسترشد،

فيناظر كل مسترشد بما يحتمله فهمه . . . فالمذهب ، بهذا الاعتبار ، يتغير ويختلف ، ويكون مع كل واحد ، على حسب ما يحتمله فهمه .

المذهب الثالث ما يعتقده الرجل سراً ، بينه وبين الله عزّ وجل ، لا يطلع عليه غير الله تعالى ، ولا يذكره الا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما اطلع ، او بلغ رتبته يقبل الاطلاع عليه ويفهمه . . .

فهذا طريق فريق من الناس . واما الفريق الثاني ، وهم الاكثرون ، فيقولون : المذهب واحد ، هو المعتقد ، وهو الذي ينطق به تعليماً وارشاداً ، مع كل آدمي ، كيفما اختلفت حاله ، وهو الذي يتعصب له وهو اما مذهب الاشعري ، او المعتزلي ، او الكرامي ، او اي مذهب من المذاهب . والاولون يوافقون هؤلاء على انهم لو سئلوا عن المذهب انه واحد او ثلاثة ، لم يجز ان يذكر انه ثلاثة ، بل يجب ان يقال انه واحد .

وهذا يبطل تعبك بالسؤال عن المذهب ، ان كنت عاقلا . فان الناس متفقون على النطق بان المذهب واحد ، ثم يتفقون على التعصب لمذهب ابيهم ، او معلمهم ، او اهل بلدهم . ولو ذكر ذاكر مذهبه ، فما منفعتك فيه ، ومذهب غيره يخالفه ، وليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه . فجانب الالتفات الى المذاهب ، واطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن في صورة اعمى ، تقلد قائداً يرشدك الى طريق ، وحواليك الف مثل قائدك ينادون عليك بانه اهلكك ، واضلك عن سواء السبيل . . .

ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشككك في اعتقادك الموروث ، لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً . اذ الشكوك هي الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال ، نعوذ بالله من ذلك .

علم الكلام

نقول ان فيه منفعة ، وفيه مضرة . فهو باعتبار منفعته ، في وقت الانتفاع ، حلال ، او مندوب اليه ، او واجب ، كما يقتضيه الحال . وهو باعتبار مضرته ، في وقت الاستضرار ومحله ، حرام .

اما مضرته فاثارة الشبهات ، وتحريك العقائد ، وازالتها عن الجزم والتصميم . فذلك مما يحصل في الابتداء . ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الاشخاص . فهذا ضرره في الاعتقاد الحق .

وله ضرر اخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة ، وتثبيته في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ، ويشتد حرصهم على الاصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل . . .

واما منفعته ، فقد يظن ان فائدته كشف الحقائق ، ومعرفتها على ما هي عليه ، وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف . ولعل التخبيط والتضليل فيه اكثر من الكشف والتعريف . وهذا اذا سمعته من محدث او حشوي ، ربما خطر ببالك ان الناس اعداء ما جهلوا . فاسمع هذا ممن خبر الكلام ، ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التغلغل فيه الى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك الى التعمق في علوم اخر تناسب نوع الكلام ،وتحقق ان الطريق الى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود. ولعمري،لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف،وايضاح لبعض الامور ، ولكن على الندور ، في امور جلية ، تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام

بل منفعته شيء واحد ، وهو حراسة العقيدة ، التي ترجمناها على العوام ، وحفظها عن تشويشات المبتدعة ، بانواع الجدل فان العامي

ضعيف ، يستفزه جدل المبتدع ، وان كان فاسدًا ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه .

(الاحياء : ١ : ٧٣)

اعمل ، وانه غير مؤمن !

يتكلم الغزالي عن سلوك سبيل السعادة الاخروية ، فيرى ان الناس في ذلك اربع فرق ، وان الفرقة الرابعة ذهبت الى ان الموت عدم محض ، وان الطاعة والمعصية لا عاقبة لها ، فيخاطب من يميل الى اعتقاد هذه الفرقة قائلًا :

وان كنت تظن صحته ظنًا غالبًا ، ولكن بقي في نفسك تجويز صدق الانبياء والاولياء وجماهير العلماء ، ولو عن بعد ، فعقلك ايضًا يتقاضاك سلوك طريق الأمن ، واجتناب مثل هذا الخطر الهائل . فانك لو كنت في جوار ملك ، وامكنك ان تتعاطى في واحد من محارمه ، مثلًا ، عملًا من الاعمال ، تظن غالبًا انه يقع منه موقع الرضى ، فيعطيك عليه خلعة ودينارًا ، ويحتمل احتمالًا ، على خلاف الظن الغالب ، انه يقع منه موقع السخط ، فينكل بك ، ويفضحك ، ويديم عقوبتك كل عمرك ، اشار عليك عقلك بان الصواب ان لا تقتحم هذا الخطر . فانك ان فعلت واصبت فمزيته دينار ، لا يطول بقاؤه معك . وان اخطأت فنكاله عظيم ، يبقى معك طول عمرك ، فليس تفي ثمرة صوابه بغائلة خطأه . . . ولهذا قال علي ، رضي الله تعالى عنه ، لمن كان يشاغبه ويماريه في امر الاخرة : ان كان الامر على ما زعمت ، تخلصنا جميعًا ، وان كان الامر كما قلتُ ، فقد هلكتَ ونجوتُ .

فلاسفة العرب

سلسلة دراسات ومختارات

ظهر منها :

١ – ابن الفارض (طبعة ثانية)

٢ – ابو العلاء المعري (طبعة ثانية)

٣ – ابن خلدون (طبعة ثانية)

٤ – الغزالي : في جزئين (طبعة ثانية)

٥ – ابن طفيل

٦ – ابن رشد : في جزئين

٧ – اخوان الصفاء

للمؤلف ايضاً :

قربان الاغاني : معرَّب عن طاغور

أ. علاء الدين شوقي
رفع أ. علاء الدين شوقى أسكنه الله الفردوس

تم طبع هذا الكتاب في الخامس عشر
من شهر تشرين الاول سنة ١٩٦٥

٦٥/١٠/١٥-٣-٧٣٠٨